كأن المُلْكَ قبل ذلك - أى فى الدنيا - كان للبشر فيه شىء لمباشرتهم الأسباب هذا يملك ، وذلك يملك ، وآخر يوظف ، لكن فى الآخرة لا مالك ، ولا مَلِكَ إلا الله ، فإياكم أن تغتروا بالأسباب ، وأنها دانت لكم ، وأنكم استطعتم أن تتحكموا فيها ؛ لأن مرجعكم إلى الله .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

اذكروا أننا قلنا من قبل : إن الله هدى الكل . . بمعنى أنه قد بلَّغهم بمنهجه عبر موكب الرسل ، وحين يقول سبحانه : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ فالمقصود هنا ليس هداية الدلالة ، لكن دلالة المعونة . وقد فرقنا بين هداية الدلالة وهداية المعونة .

وقوله الحق ﴿ فريقاً هدى ﴾ أى هداية المعونة ؛ لأن هذا الفريق أقبل على الله بإيمان فخفف الله عليه مؤونة الطاعة ، وبغّضه فى المعصية ، وأعانه على مهمته . أما الذى تأبى على الله ، ولم يستجب لهداية الدلالة أيعينه الله ؟ لا . إنه يتركه فى غيِّه ويخلى بينه وبين الضلالة ، ولو أراده مهديًا لما استطاع أحد أن يغير من ذلك . وسبحانه منزه عن التجنى على أحد من خلقه ، ولكن الذين حق عليهم الضلالة حصل لهم ذلك بسبب ما فعلوا .

﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

إن من يرتكب المعصية ويعترف بمعصيته فهذه تكون معصية ، أمّا من يقول إنها

هداية فهذا تبجح وكفر ؛ لأنه يرد الحكم على الله . وخير للذين يرتكبون المعاصى أن يقولوا : حكم الله صحيح ولكننا لم نقدر على أنفسنا ، أما أن يرد العاصى حكم الله ويقول : إنه الهداية ، فهذا أمره عسير ؛ لأنه ينتقل من مرتبة عاصٍ إلى مرتبة كافر والعياذ بالله .

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

لأنهم يفعلون ما حرم الله ، وليتهم فعلوه على أنه محرّم ، وأنهم لم يقدروا على أنفسهم ، ولكنهم فعلوه وظنوا أن الهداية فى الفعل . وهذا الأمر يشيع فى معاصٍ كثيرة مثل الربا ، فنجد من يقول : إنه حلال ، ونقول : قل هو حرام ولكن لم أقدرْ على نفسى ، فتدخل فى زمرة المعصية ، ولا تدخل فى زمرة الكفر والعياذ بالله ، ويمكنك أن تستغفر فيغفر لك ربنا ، ويتوب عليك ، ولكن أن ترد الحكم على الله وتقول إنه حلال !! فهذا هو الخطر ؛ لأنك تبتعد وتخرج عن دائرة المعصية وتتردى وتقع فى الكفر ، اربأ بنفسك عن أن تكون كذلك واعلم أن كل ابن آدم خطاء ، وما شرع الله التوبة لعباده إلا لأنه قدَّر أن عبيده يخطئون ويصيبون ، ومن رحمته أنه شرع التوبة ، ومن رحمته كذلك أنه يقبل هذه التوبة ، فلماذا تخرج من حيز يمكن أن تخرج منه إلى حيز يضيق عليك لا تستطيع أن تخرج منه ؟ .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (٣١)

والزينة إذا سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشىء ، وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

هذا يعنى أن يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس ، وكذلك يمكن أن يكون المقصود بـ ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ هو رد على حالة خاصة وهو أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وأن المراد بالزينة هنا هو ستر العورة . أو المراد بالزينة ما فوق ضروريات الستر ، أو إذا كان المراد بها اللباس الطيب الجميل النظيف ، فنحن نعلم أن المسجد هو مكان اجتماع عباد الله ، وهم متنوعون فى مهمات حياتهم ، وكل مهمة فى الحياة لها زيها ولها هندامها ؛ فالذى يجلس على مكتب لمقابلة الناس له ملابس ، ومن يعمل فى « الحِدَادَة » له زى خاص مناسب للعمل ، ولكن إذا ذهبتم إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً فى لقاء الله ، أيأتى كل واحد بلباس مهنته ليدخل المسجد ؟ لا ، فليجعل للمسجد لباساً لا يُضَايق غيره ، فإن كانت ملابس العمل فى مصنع أو غير ذلك لا تليق ، فاجعل للمسجد ملابس نظيفة حتى لا يُؤذَى أحد بالوجود بجانبك ؛ لأننا نذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع وهو لقاء الله فى بيت الله ، فلابد أن تحتفى بهذا اللقاء .

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

والمأكل والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة ، وكل واشرب على قدر مقومات الحياة ولا تسرف ، فقد أحل الله لك الأكثر وحرّم عليك الأقل ، فلا تتجاوز الأكثر الذى أُحلَّ لك إلى ما حرم الله ؛ لأن هذا إسراف على النفس ، بدليل أنه لو لم تجد إلا الميتة ، فهى حلال لك بشرط ألا تُسرف . ولا يصح أن تنقل الأشياء من تحليل إلى تحريم ؛ لأن الله جعل لك فى الحلال ما يغنيك عن الحرام ، فإذا لم يوجد ما يغنيك ، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك ، والمسرفون هم المتجاوزون الحدود . ولا سرف فى حل ، إنما السرف يكون فى الشىء المحرم ، ولذلك جاء فى الأثر :

« لو أنفقت مثل أحد ذهباً فى حِلٍّ ما اعتبرت مسرفاً ، ولو أنفقت درهماً واحداً فى محرم لاعتبرت مسرفاً » .

ولذلك يطلب منك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعطى كل نعمة حقها

بشرط ألا يؤدى بك ذلك إلى البطر، وحينما ذهب إليه سيدنا عثمان بن مظعون، وقد أراد أن يترهب، ويتنسك، ويسيح فى الكون، وقال لرسول الله: يارسول الله، إننى أردت أن اختصى؛ أى يقطع خصيتيه؛ كى لاتبقى له غريزة جنسية، فقال ﷺ: ياعثمان خصاء أمتى الصوم. لذلك قال ﷺ فى شأن من لم يستطع الزواج: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1].

وقد روى أن رسول الله ﷺ ذكر الناس وخوفهم فاجتمع عشرة من الصحابة وهم: أبو بكر وعمر وعلى وابن مسعود وأبو ذر وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد وسليمان وعبد الله بن عمرو بن العاص ومعقل بن مقرن فى بيت عثمان بن مظعون فاتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولاييناموا على الفراش ولايأكلوا اللحم ولايقربوا النساء ويجبّوا مذاكيرهم»[2]. فكان التوجيه النبوى أن حمد الرسول ﷺ ربه وأثنى عليه وقال: «مابال أقوام قالوا كذا وكذا ولكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى»[3].

ويتابع الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ومادام أخرجها لعباده فهو قد أرادها لهم، ومايىنفع منها للإناث جعلتها السنة

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) فتح البارى.
(٣) رواه مسلم.

للإناث ، وما يصلح منها للذكور أحلتها السنّة لهم ، وكذلك الطيب من الرزق حلال للمؤمنين والمؤمنات . ولنلحظ دقة الأسلوب هنا فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ثم يتابع سبحانه :

﴿ خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

فكأننا أمام حالتين اثنتين : حالة فى الدنيا ، وأخرى فى يوم القيامة ، معنى ذلك أن الزينة فى الحياة الدنيا غير خالصة ؛ لأن الكفار يشاركونهم فيها ، فهى من عطاء الربوبية ، وعطاء الربوبية للمؤمن وللكافر ، وربما كان الكافر أكثر حظًّا فى الدنيا من المؤمن ، ولكن فى الآخرة تكون الزينة خالصة للمؤمنين لا يشاركهم فيها الكافرون .

وكذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعطى اليقظة الإيمانية فى المؤمن بوجود الأغيار فيه ، ومعنى وجود الأغيار أنه قد يتعرض الإنسان لتقلبات بين الصحة والمرض والغنى والفقر والقوة والضعف . وهكذا يكون الإنسان فى الدنيا ؛ فهى دار الأغيار ، ويصيب الإنسان فيها أشياء قد يكرهها ؛ لذلك فالدنيا ليست خالصة النعيم لما فيها من أغيار تأتيك فتسوؤك .إنها تسوؤك عند غيبة شحنة الإيمان منك ؛ لأنك إن استصحبت شحنة الإيمان عند كل حدث أجراه الله عليك لَلَفَتَكَ الله إلى حكمته .

﴿ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ويمكن أن نقرأ كلمة « خالصة » منصوبة على أنها حال ، ويمكن أن نقرأها فى قراءة أخرى مرفوعة على أنها خبر بعد خبر ، والمعنى : أنها غير خالصة للمؤمنين فى الدنيا لمشاركة الكفار لهم فيها ، وغير خالصة أيضاً من شوائب الأغيار ولكنها

فى الآخرة خالصة للمؤمنين فلا يشاركهم الكفار ولا تأتى لهم فيها الأغيار .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

معنى « نفضل الآيات » أى لانأتى بالآيات مجملة بل نفصل الآيات لكل مؤمن ، فلا نترك خللاً ، ونأتى فيها بكل ما تتطلبه أقضية الحياة ، بتفصيل يُفهمنا قضايانا فهماً لا لبس فيه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

والحق سبحانه ـ قد بدأ الآية بـ « إنما » التى هى للحصر : أى ما حرم ربى إلا هذه الأشياء ، الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغى بغير الحق ، والشرك بالله ، والقول على الله ما لا نعلم ، فلا تدخلوا أشياء أخرى وتجعلوها حراماً ، لأنها لا تدخل فى هذه ، وقول الله فى الآية السابقة : ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ هو على صيغة استفهام لكى يجيبوا هم . ولن يجدوا سبباً لتحريم زينة الله . لأن الحق قد وضح وبينّ ما حرم فقال :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)